معى والسيرة الذاتية
أو شوقى ضيف فى تاريخ حياته

د. ماهر حسن فهمى

أكبر الظن أن العنوان متأثر بكتاب «معك» الذى كتبته زوجة طه حسين - عن رفيق عمرها، ولما كان شوقى ضيف يقدس الوفاء أولاً، ويعتبر طه حسين - المثل الأعلى له ثانيًا، فقد تحولت «معك» إلى «معى» عن وعى أو غير وعى، ولكنها على كل حال لها كل الدلالات السابقة، بالإضافة إلى دلالتها على صحبتنا لصاحب السيرة الذاتية منذ الميلاد حتى اليوم.

والسيرة الذاتية لها مناهجها، منها المنهج الوصفى، ومنها المنهج التحليلى، فى مقابل المنهج التركيبى الذى تتألف منه السيرة الغيرية، والمنهج التحليلى يمكن أن نمثل له «بقصة نفس» لزكى نجيب محمود، و «أنا» لعباس محمود العقاد، أما المنهج الوصفى فقد وضح بصورة أقرب إلى التقريرية فى «حياتى» لأحمد أمين، وفى إطار العرض الروائى فى «على الجسر» لبنت الشاطىء، و «معى» لشوقى ضيف، وأما «الأيام» لطه حسين فقد استفادت من كلا المنهجين: الوصفى الروائى والتحليلى، وبنت الشاطىء وشوقى ضيف كلاهما نشأ فى دمياط، وكلاهما صارع طويلاً حتى ثَبَّتَ مكانته العلمية فى الوطن العربى، وصارع طويلاً بعض صور التخلف فى القرية حين أتى إلى المدينة الكبيرة، ولكنه احتفظ بما فى القرية من أصالة وقيم، توقفت بنت الشاطىء على الجسر عند التقائها بأمين الخولى، ووقفت تتأمل الحياة التى عاشتها قبله، حتى إذا التقت به وأحست أنها انتقلت نقلة جديدة، جرت الأيام مسرعة عجلة ففقدته، وعادت لتقف وحيدة، ولكن شوقى ضيف - ربما وحده - فى هذا الجيل - جيل العمالقة والرواد - الذى ظل يعطى إلى اليوم، فلم يتوقف القلم فى يده ولم يستمرىء الراحة، ولم يركن إلى الكسل العقلى، ولم يبخل على أبناء جيله وعلى تلاميذه بثمرة جهده العلمى، ومن هنا كانت قيمة هذه السيرة الذاتية.

«فى قرية بجوار دمياط كان يربض مستنقع واسع يشغل أكثر من مائتى فدان ملىء بالأسماك، وبنبات البردى، وبأزهار النيلوفر (اللوتس) قائمة على سيقانها ليل نهار، كأنما تنتظر موعدًا مضروبًا، مطلة برءوسها وأعناقها فوق مياه غارقة فيها، كأنها دموعها، ويسميها أهل القرية والريف المصرى باسم البشنين، وأوراقها تتضامُ ليلاً للنوم، فى شكل كأس زمردى،

obeikandi.com

وتتفتح الأوراق فى الصباح، مع نسمات السحر وأندائه المتلألئة عن شعل ملتهبة، متعددة الألوان، بين لازوردى، وأرجوانى، وكهرمانى، وعند السيقان تستلقى أوراق عريضة مستديرة تتوسد المياه، حول قامات البشنين الهيفاء، كأنما تدعوها لتكتب عليها بمداد من حولها - لا ينفد - ما تشاء.

«وفى الجانب المقابل للقرية تقع بحيرة المنزلة بصياديها وشباكهم، وبمياهها الفضية البراقة، وكأن سماء من البلور الناصع تمتد على سطحها المشرق الهادىء الساطع، والمراكب الشراعية تتهادى فيها مقبلة مدبرة، متمايلة مع الريح - تمايل الأغصان - بأشرعتها البيضاء، المتفاوتة الأحجام، كأنما هى طيور سابحة بجناح واحد فريد، وتقترب فتخالها حسنات منثورة على خدود البحيرة اللامعة البراقة، وتبتعد جانحة إلى المغيب فتخالها أهلة تغرب فى الأفق السحيق».

هكذا يبدأ شوقى ضيف سيرته الذاتية، كأنه مصور يرصد المكان بخيال الفنان، فنرى بعينيه قرية وسط شلال من الأضواء والألوان، ونندفع معه نلتهم الأسطر ونقلّب الصفحات، فنجده قد ولد بعد أخوين اختطفهما الموت، ولذلك فرح به أبواه، والذى يقرأ طه حسين فى الأيام يجده قد وقف عند حدث الموت موقف المحلل، فجسم لنا موقفًا إنسانيًا رائعًا لا يبرح ذاكرته ولا يبرح خيالنا، قصة الصراع بين الموت والحياة حين فقد أخاه، وعجْز الأبوين عن إنقاذ ولدهما وهو يموت رويدًا رويدًا حتى يخمد، وتصعد روحه، ولا يعود أمام الإنسان إلا أن يبكى من فقده، أو يكتم لوعته والقلب ينزف، أو يفلسف الموت، ولكن شوقى ضيف يمر على حادث الموت مرورًا سريعًا، لأنه لم يشهده بطبيعة الحال، ولكن ألم يسمع عنه من أحد أبويه؟ ألأن من مات مات طفلاً ليست له ذكريات الصبا والفتوة والشباب؟ كل ذلك جائز.

وقد صور لنا شوقى ضيف القرية وأثرها وأحداث الطفولة، وهى أحداث تختلف من فرد إلى فرد بطبيعة الحال، فحادث وقوعه فى مسرب المياه، أثّر فى حياته، من بعد فلم يتعلم السباحة مثل لداته، وظل يخشى الغرق، ونشأة الصبى وهو يرى فى مكتبة أبيه كتب فقه وحديث وعلوم دين، أثّرت فى نفسه، ووجهته منذ نعومة أظفاره إلى حفظ القرآن الكريم، ثم إلى المعهد الدينى. والأقاصيص التى روتها له جدته مما كانت تسمعه من زوجها، وهو يقرأ أخبار الفتوح الإسلامية ظلت لا تبرح ذاكرته، مثل تلك التى تروى ما سمعه المأمون من زبيدة زوجة أبيه الرشيد وأم الأمين، حين ألح عليها فى أن تذكر له ما تمتمت به، فقالت: كنت أقول ليت هذا الموكب كان لابنى الأمين، فندم المأمون على إلحاحه، وهذه القصة وأمثالها مما لقنه الفتى فى صغره عودته ألا يلح فى أى شىء وألا يفكر فى التعرف على أى خبر، يمس شخصًا مهما تكن صلته به، وظل يبغض التطفل والمتطفلين، وهكذا نتعلم من السير الذاتية ومن مثل هذه الالتفاتة التربوية، فنُضيف إلى خبراتنا فى الحياة خبرات الأعلام.

وإذا كان طه حسين قد حدثنا عن الخرافات فى القرية النائية بصعيد مصر التى نشأ فيها وأثرها فى نفسه، فإن شوقى ضيف يحدثنا عن الخرافات فى قرية بشمال الوادى - العفاريت - ولكنه يربط بينها وبين الخرافات التى سمعها بعد ذلك، حين زار بلادًا أوربية، ومنها سويسرا ورأى بيت الأشباح كما يسميه سكان القرية السويسرية، وهو قريب من منزل «أينشتين» الذى سكنه مدة هناك، «ولا يجرؤ أحد على سكناه خوفًا من الأشباح التى تقطنه، وهى خرافة الكائن البحرى، الذى يعتقد أهل اسكتلندة أنه رابض فى بحيرة لوخ نيس، وأن أحدًا لا ينزل فيها إلا ويفتك به، وهما دليلان واضحان على أن الأمم مهما ارتقت عقليًا وعمليا، لاتزال الخرافة تجد مأوًى لها فى أذهان أرقى الأمم فكريًا، وكما يتضح ذلك فى الأمم يتضح فى الأفراد، فقد يكون الفرد من أعلم معاصريه بقوانين العلوم الطبيعية، ومع ذلك يؤمن بالأشباح، وبقوى غيبية لا يستطيع ردها ولا دفع شرها، فضلاً عن فرض سيطرته وإرادته عليها، وهى مبالغات وخيالات ينبغى أن يتخلص منها الإنسان ويطرحها بعيدًا حتى لا تفسد عليه حياته»[1].

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد كانت هذه الأقاصيص التى يسمعها الصبى تطلق خياله، حتى إذا نما عقله أعاد هذه الخيالات إلى حجمها الطبيعى، وهى مرحلة تمرّ بها الشعوب فى نشأتها الأولى، وتبقى رواسبها فيما يسمى «بالعقل الجماعى» الذى تختزنه الشعوب، ولذلك لا يستطيع كثير من الأفراد التخلص من آثاره تمامًا كما نقول نحن - دارسى الأدب - عن الشعراء، إن استنطاقهم للطبيعة، يرجع فى بعض تفسيره إلى هذه المرحلة السحيقة من نشأة الإنسانية، والتى ما تزال آثارها فى نفوس البشرية إلى اليوم، ومن هنا تتذوق جميعًا الشعر لأنه يربطنا بجذورنا البعيدة من ناحية، ويثير خيالنا من ناحية أخرى إلى جانب تعبيره عن حياتنا.

وهذه البدايات ترتبط بعد ذلك بما كان الصبى يسمعه من «الشاعر» وهو يُنشد قصة الهلالية، وبطليها «أبو زيد الهلالى ودياب بن غانم الزغبى» ولكل منهما مغامراته الحربية، وعادة ينشد الشاعر أجزاء من القصة على الربابة، ومنذ ألف عام على وجه التقريب كانت تنشد هذه السيرة فى القرى المصرية، وتشايع قرية أبا زيد وأخرى تشايع دياب بن غانم بطل بنى زغبة، فبعضها هلالية وبعضها زغبية، وكان ذلك تعبيرًا عما بين القرى من تنافس، كما يقول المؤلف، ولا يدع المؤلف الفكرة تفلت من يده بمجرد ذكرها، فهو يشعبها إلى شعبتين الأولى الإحساس بالانتماء العربى منذ زمن لأن القرى والنجوع إما هلالية أو زغبية، فهى تشعر بالانتماء ليس حبًا فى البطولة وحدها ولكن حبًا فى الانتماء إلى البطولة العربية التى هى جزء منها، أما الأمر الثانى، فهو اهتمام الصبى منذ ذلك الوقت بقراءة السير الشعبية، وأثر هذه القراءات فى تكوينه

(١) مخطوطة «معى» جـ ٢ ص ٥١

الأدبى، وهكذا نجد الكاتب ينفذ من الفكرة المعروضة إلى أعماقها من حين إلى حين محاولاً التحليل، وإن كان الوصف والسرد يغلبان على السيرة فى النهاية.

ومهما توزع حديث المؤلف فإن نقطة الانطلاق دائمًا هى القرية، يعود إليها من حين إلى حين، يستروح أنسامها، ويحنُّ إليها ويرى فيها ما لا يراه فى المدينة، التى تلقفته بعد ذلك فصنعت منه الشخص الذى نعرفه، ومنحته الثقافة والشهرة والمنصب، ولكن حنينه إلى القرية لا ينتهى، فيذكرنا بديوان أحمد عبد المعطى حجازى «مدينة بلا قلب»، وأهم ما يشده إلى القرية بساطتها وما فيها من تلقائية، فالعمل خارج المنزل فى الوظائف كثير، والمعرفة تشعبت و تراكمت فى أذهان الأمهات، بحيث ضاعت منهن الحكمة البصيرة (الجزء الأول ص ٢٥) والطبيعة التى شدت كل مهاجر إلى المدينة، والموال الذى يردده القروى والقروية يضفى سحرًا خاصًا، ويزرع حب الفن، ولذلك نجد القطعة الأدبية الراقية فى السيرة تتعلق دائمًا بوصف الطبيعة، التى تعلق بها الكاتب منذ مرحلة الصبا «فنشأ يرنو إلى الجمال الطبيعى ويحب الريف ومناظره حبًّا يملك عليه ذات نفسه: مناظر الحشائش وطنافسها الخضراء والأرز والقمح وسنابلها الشقراء، والقطن ولوزه يتفتح وتتدلى منه خصله البيضاء، وهنا وهناك أشجار النخيل المصعدة فى السماء حاملة أعذاقها ومشاعلها الحمراء، والمياه تتهادى فى القنوات، والبشنين كالطاووس يزدهى بألوانه، والورود تتمايل مع النسيم مذيعة سرّ شذاها العطر، وسقاة الأرض، فى سكون الليل الجاثم على الحقول، يتغنون على السواقى ببعض الأغانى الريفية الساذجة، التى طالما استمع إليها النيل وقنواته منذ آلاف السنين، كل ذلك يسكب فى نفس الصبى متاعًا ما بعده متاع. (الجزء الأول ص ٢٨).

على أن أثر القرية الاجتماعى كان يتمثل فى وحدة القرية أمام الآمال والآلام، والأفراح والمآتم، كأنها أسرة كبيرة على كل فرد فيها أن يشارك الآخرين مشاعرهم، فيفرح معهم إذا فرحوا، ويحمل همومهم فى كل ما يصيبهم من كوارث، وأحسب أن حياة المدينة استطاعت أن تغير الدكتور شوقى ضيف فى هذا الجانب، فلم يعد ذلك الرجل الاجتماعى إلا بقدر ما يقدّم لطلابه من عطاء، وقد أعطى فى هذا الجانب بلا حدود، ومن هنا كان البديل الذى توفر له فى المدينة.

وكانت القرية تقيم من حين إلى حين ليالى للذكر احتفالاً بقدوم أحد أصحاب الطرق الصوفية. وكان الصبى لا يترك احتفالاً من هذه الاحتفالات إلا ويحضره للفرجة على الذاكرين والاستماع للمنشد.. ومن المؤكد أن الصوفية أدوا للإسلام خدمات عظيمة بنشره فى غربى إفريقية وأواسطها وشرقيها وفى أواسط آسيا.

وهذا النص يثير أمرْين: الأول أسلوب العرض، والثانى انتشار الطرق الصوفية من ناحية،

ودورها من ناحية ثانية، أما أسلوب العرض فهو الأسلوب الروائى كما قلنا، وقد أخذت السيرة من الرواية وأعطتها، أخذت منها أسلوب العرض، وأخذت منها ضمير الغائب، وضمير الغائب يتيح لكاتب السيرة - كما أتاح لطه حسين من قبل - أن ينطلق على سجيته، كأنه يروى قصة شخص آخر، فى حين أخذت القصة من السيرة الذاتية ضمير المتكلم الذى يوهم القارئ بأن القصاص يروى سيرة ذاتية.

أما الأمر الثانى: فهو الحديث عن الطرق الصوفية، وتقف عدسة الكاتب أمام الطرق الصوفية طويلاً، لتصف احتفالاتهم وهم يسيرون فى الشوارع ببيارقهم، ثم وهم يقفون صفوفا، ويتطوحون يمينا ويسارًا بعنف، حتى يتخلصوا من حسية الجسد، ولا يبقى سوى الروح واللسان يذكران الله، وقد تراجعت هذه الصور الآن كثيرًا، وإن كانت ما تزال فى القرى النائية وفى الموالد ما تزال لها بقية، تتضاءل أمام انتشار التعليم، وعاد مفهوم التصوف يرتبط بجوهر الإسلام وخدمة الدين، والواقع أن الصوفية قد نشروا الإسلام فى إفريقيا وآسيا، حتى أن الخطوط التى ترسم فى أفريقيا لبيان حدود الإسلام وراء خط الاستواء، تنتقل متقدمة إلى الجنوب كل عام، وقد حاول محمد توفيق البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية فى مصر أول هذا القرن، أن يرد على منكرى العقائد الصوفية، والداعين إلى تصفيتها باعتبارها مما دخل الإسلام فى القرن الثانى عن طريق الفرس، بدليل أن مشايخ الطرق الأولين كلهم من الأعاجم كالجنيد والنهاوندى، وأبو زيد البسطامى، وإبراهيم بن أدهم البلخى، وسهل التسترى، ومن أجل ذلك يرد البكرى ذاكرًا أن الصوفية فتحت للإسلام قدر ما فتحته سيوف المسلمين، وإصلاح الصوفية يكون بتوجيه التصوف، حتى يصبح مدرسة عظمى هدفها العلم بالشرع والعمل به، ولا يكون بتصفية التصوف، والحركة الصوفية التى دوخت المبشرين(١).

لقد حفظ الصبى القرآن صغيرًا، وكان يتلوه تسميعًا دون أى لحن وهو فى حدود العاشرة من عمره، ومما لاشك فيه أن هذا الجيل الذى حفظ القرآن صغيرًا، كان جيلاً متمكنًا من اللغة العربية، وسر تمكنه من لغته هو حفظ القرآن، لأن القرآن ليس نصًا بليغًا وحسب، ولكنه مجمع فصاحة وشريعة، وقياس نحوى ومعجم لغوى.

وكأنما أراد أن يربط الدكتور شوقى ضيف بين عالمه الداخلى والعالم الخارجى من حوله، لأنه يشعر بالانتماء إلى دولة وإلى أمة، هو فرد فيها، فما يصيبها ينعكس بالضرورة عليه سلبًا وإيجابًا، ولذلك يربط باستمرار بين حياته، وحياة الأمة، فثورة ١٩١٩ وما أعقبها من مناورات الانجليز، والخلاف الذى حدث بين سعد زغلول وعدلى، وفشل المفاوضات مع بريطانيا، كل ذلك جعل

---

(١) راجع المستقبل للإسلام لمحمد توفيق البكرى ص ٢٠.

سعد زغلول يصبح رمزًا للأمة تجتمع حوله، ولكن أسلوب العرض الشيق لا يربط بين الحياة العلمية والحياة السياسية وحسب، بل يحيل الرابطة إلى وحدة عضوية.

«وكان سعد قد أخذ يلهب حماسة الأمة بخطبه النارية، فى شهرى أكتوبر ونوفمبر، مطلع أول عام للصبى فى معهده الدينى بدمياط، وكان طلاب هذا المعهد كغيرهم من أبناء الأمة يتأججون وطنية، فلم تكد تنتظم الدراسة فيه يومًا، ولم يكن للطلاب من حديث سوى خطب سعد وكلماته الملتهبة.. واستشاط الإنجليز حنقًا وغضبًا، ولم يلبثوا أن اعتقلوا سعد زغلول فى ٢٣ من ديسمبر عام ١٩٢١ مع سبعة من أعضاء الوفد، ونفوهم إلى سيلان ومنها إلى سيشل.. ولما تفاقمت المظاهرات والاضرابات، تقرر إلغاء الدراسة فى الأزهر ومعاهده الدينية لهذا العام الدراسى، وفى الحق إنه لم يكن عام دراسة بل عام ثورة وكفاح وجهاد، وتتعاقب الأحداث، ويقرر الوفد عدم التعاون مع الإنجليز فى جميع المعاملات الفردية، كما يقرر مقاطعة بنوكهم وشركات تأمينهم وسفنهم وكافة أنواع التجارة معهم، ويضطر الإنجليز إلى إعلان تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢، معترفين باستقلال مصر». (جـ ١ ص ٤٦).

على أن الحياة العلمية ليست دراسة فى المعهد، أو المدرسة فحسب، ولكنها أيضا ثقافة تهم الجمهور، ومن هنا كانت الصحف الحزبية إلى جانب اهتمامها بالخبر السياسى تهتم بالمقال الأدبى، لأن الأدب فى مرحلة نشوء الأمم هو معلمها الأول، يعرض عليها الحقائق العلمية بأسلوبه الأدبى، ويدفعهم دفعًا إلى حب العلم، ومن هنا اهتمت الصحف بمقالات محمد حسين هيكل، وطه حسين، والعقاد، وكانوا يعتبرون من المجددين، ومصطفى صادق الرافعى، وكان حاملا لواء المحافظين، وكان الصبى يعجب بهم جميعا ويقرأ لهم جميعًا، ولكن طه حسين كان أقربهم إلى قلبه، ربما لأنه بدأ حياته أزهريًا مثله، وربما لما يمتاز به أسلوبه من بيان وسهولة معجزة.

ومن هذه الفترة تبدأ الحياة العلمية تملك وقت الفتى وعقله، حتى نهاية الجزء الأول من السيرة، فهو يتحدث عن أول كتاب ألفه فى النحو، وكان «مغنى اللبيب» لابن هشام هو الذى أوحى للفتى مبكرًا بالحاجة إلى تبسيط النحو للناشئة، وظلت هذه الفكرة معه حتى كان آخر كتاب ألفه عام ١٩٨٦ هو «تيسير النحو التعليمى قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده»، هذا بالإضافة إلى كتابه «تجديد النحو» الذى أصدره عام ١٩٨٢، وفيهما دعوة إلى تيسير النحو وحذف كثير من أبوابه المختلف عليها والمعقدة، لأنه ذاق ما يذوقه المعاصرون اليوم من متاعب فى دروس النحو.

على أن النحو لم يكن شغله الشاغل، فدائرة ثقافته تتسع باستمرار، فيشغله الأدب المهجرى الذى يقرأه عند تاجر لبنانى، ويجد له مذاقًا خاصًا، فى الوقت الذى كان فيه شوقى

عملاق الشعر فى هذه المرحلة تنشر الصحف شعره، وتتسابق إلى عرض كل قصيدة جديدة فتحتفل بها احتفال من ظفر بكنز، وهكذا اتسعت دائرة الحياة الثقافية حول الصبى، وقد كانت المرحلة خصبة حقًا، تحاول تأكيد ذاتها، واستجلاء هويتها، تارة بتحصين نفسها بالتراث، وتارة بمسايرة كل جديد تأتى به الحضارة الغربية والفكر الغربى، ومن هنا وجدنا قضيتى على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) وكتاب (فى الشعر الجاهلى) لطه حسين اللذين صدرا عام ١٩٢٥، ١٩٢٦، يحدثان دويًا أشبه بدوىّ القنابل، فالأول يناقش فصل الدين عن الدولة، ويرى أن الخلافة ليست جوهرًا وأصلًا من أصول الإسلام وقد حُوكم على عبد الرازق وفُصل من هيئة كبار العلماء، والثانى يشكك فى تاريخ الأدب ويطبق منهج الشك الديكارتى متأثرًا «برينان»، ولكن الأخطر أنه يرى أن ما أتى به القرآن من أخبار وآثار لابد أن يدعمه البحث العلمى الحديث عن طريق الحفريات والآثار والنقوش وغيرها، ليكون مؤكدا على كل المستويات - وهو يعنى أن يكون مقنعًا لغير المسلمين أو للبشر كافة - ولكن خانته العبارة، فأثار ضجة هائلة وصُودر الكتاب، وأحيل مؤلفه للنيابة العامة للتحقيق، ونوقش الموضوع فى البرلمان، وظل بين أخذ ورد، حتى حسمت النيابة المعركة وحفظت القضية.

وقد تخرج الفتى فى معهد دمياط الدينى عام ١٩٢٦ وسط هذا الجو الفكرى المثير، والجدل الذى يملأ صفحات الكتب،والأخبار التى تتناقلها الصحف، والطلاب يعيشون هذا المناخ ويناقشونه، وأصبح تلميذًا بمعهد الزقازيق الثانوى الدينى، حين كانت قضية طه حسين تشغل الطلاب، والأساتذة، والمجتمع، والصحف، والبرلمان، والنيابة، فهى إذن مرحلة صراع فكرى هائل، تصهر الجميع، فينجلى المعدن النفيس.

وهو لا ينسى أنه أزهرى النشأة فيدافع عن طريقة الأزهر التقليدية التى تركز على المتون، وتهتم بالشروح والحواشى والتقارير، ويرى أن كل هذه التعليقات والتفريعات أشبه بدائرة معارف، وأن الجامعات لم تفد من هذه الطريقة فيما يمكن أن يسمى بعلم احتمالات النصوص، وهى وجهة نظر على أية حال، وإن كانت هناك وجهة نظر مقابلة، (فلكل فعل رد فعل مساو له فى القوة ومضاد فى الاتجاه)، ترى أن هذه الشروح والتعليقات، والتلخيصات، والتفريعات، لا تمثل مرحلة إبداع ولكنها تمثل مراحل كسل عقلى، اعتمد على المتون وأخذها على أنها معجزات تحتاج إلى الشرح والتعليق والتلخيص، وكل هذا لا يمثل دائرة معارف بقدر ما يمثل أغلالًا وأثقالًا، على القارىء أن يحملها أو يحتملها سواء فهمها، أو لم يفهمها. وما زلت أذكر وأنا أدرس البلاغة فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية - وكنّا ندرسها فى المفتاح للسكاكى الذى لخصه القزوينى وشرح التلخيص للتفتازانى، (ومعه هوامش هى مواهب الفتاح لأبى يعقوب المغربى، وعروس الأفراح للسبكى وحاشية الدسوقى)، أن الشارح حين كان يقف عند

جملة، يترك المدلول البلاغى ويدخل فى المعانى الاصطلاحية، فتشبيه صوت المرأة بالرياض لا يلفت الشارح فيه إلا معنى الصوت وهو (مقابلة القارع للمقروع والقالع للمقلوع من حيث هو).

وهو يمر على أحداث ضخمة مرورًا سريعًا، كأنه يسترجع أطياف الماضى، وكأن شريط الذكريات يمر مسرعًا عجلًا، لأنه يريد أن يتوقف عند حياته هو لا حياة الآخرين، فإمارة الشعر التى وضعت على رأس شوقى إكليل الزعامة يوم ٢٩ أبريل عام سبعة وعشرين وتسعمائة وألف، والوفود الرسمية والشعبية من أبناء الأقطار العربية وأدبائها، من فلسطين ولبنان وسوريا، والأردن والبحرين وعدن والمهجر، والمغرب التى استعدت للحضور فى هذا اليوم، ومنتدى التهذيب فى بغداد الذى قرر إقامة حفلٍ تكريم لشوقى فى نفس اليوم الذى يحتفل به فيه بالقاهرة، كل هذا لا يتحدث عنه إلا حديثًا عابرًا، مع أن العرب لم يجتمعوا على شاعر فى تاريخهم الطويل كما اجتمعوا على شوقى وإمارته، فهو شاعر الفن الخالد، شاعر الإسلام، شاعر العروبة، شاعر المسرح، شاعر الأغنية، شاعر الأطفال.

وهو ما يزال يمزج الأحداث الخاصة بالعامة، فلم يلبث سعد زغلول أن مات، وهكذا ودعت مصر زعيم الأمة ومجاهدها الأكبر، وهو حدث ظل صداه، يتردد فى الحياة العامة والخاصة إلى عهد قريب، لأن أعلام الأمم لا ينتهون بموتهم، فهناك من يحمل الشعلة من بعدهم ويستمر على دربهم. وينتقل من الحياة العامة إلى الحياة الخاصة فالجامعة المصرية تفتح أبوابها عام ثمانية وعشرين وتسعمائة وألف وتقبل تجهيزية دار العلوم، وبذلك تحول الفتى إلى الزى الإفرنجى خلال العام الدراسى ١٩٢٩/٢٨.

وتغيير الزى مجرد رمز، ولكنه يعنى أنه يتأقلم مع الحياة الجديدة بسرعة، ومع التطور الموعود، مثلما فعل طه حسين، حين غير زيه الأزهرى فى السفينة التى عبرت به إلى أوروبا، ولكن جيل طه حسين كان عليه أن يقوم بعملية التطور، لا أن يعيش التطور، ومن هنا كان طه حسين يسابق الأيام، أما شوقى ضيف فيساير الأيام. طه حسين كان عميد كلية الآداب فسمح - لأول مرة فى تاريخ الجامعة - بقبول الفتاة، برغم كل ما وجه للجامعة من نقد، لأنه مقتنع أن هذا حق لها، وأن عملية التطوير لابد أن تتم على يده، وشوقى ضيف دخل الجامعة فوجد الفتاة طالبة بها لأول مرة، فلم يستنكر ولم يرحب، وما كان له أن يستنكر أو يرحب، وهو بعد فى مرحلة بين البينين كما يقال، فقد انتظم مع زملائه من حملة تجهيزية دار العلوم فى سنة تمهيدية، يتعلمون اللغات الأجنبية قبل التحاقهم بالسنة الأولى.

ولكن الأيام تجرى مسرعة عجلة، فيعزل طه حسين من قبل صدقى باشا رئيس الوزراء، لأنه رفض الكتابة فى صحيفة حزبه المسمى بحزب الشعب، «ورد وسطاءه ردًا غليظًا، إذ كيف

يتعاون مع من ألغى دستور الأمة، وخنق الحريات، واضطهد الأحرار، وسفك الدماء الطاهرة فى انتخاباته المزورة، فعزله صدقى من منصبه، ونقله إلى ديوان وزارة المعارف، فلم يذهب إليها وقدم إلى وزيرها استقالته، وأضرب طلاب الجامعة... وغضب لطفى السيد مدير الجامعة بسبب هذا العدوان على استقلال الجامعة وقدم إلى الحكومة استقالته»[1].

ويتتلمذ الفتى على يد أحمد الإسكندرى - بدلا من طه حسين، وإبراهيم مصطفى، وأمين الخولى، وعبد الوهاب عزام، وأحمد أمين، ومصطفى عبد الرازق، هذه الحلقة الذهبية التى وهبت نفسها للعلم وأعطت بغير حدود، ولكن طه حسين يعود فى العام الأخير للفتى فى الجامعة، ويدرس معهم كتابين «الموازنة» للآمدى، «وتاريخ الأدب الإنجليزى» لتين، وهو هنا يحرص على الثقافتين العربية الأصيلة، والغربية بمناهجها النقدية المعاصرة، ويمر صاحب السيرة مرورًا سريعًا على مرحلة عمله بمجمع اللغة العربية - الذى سيصبح عضوًا فيه بعد فترة من الزمن - لأنها كانت مرحلة قصيرة، فلم يلبث طه حسين أن عيّن لأول مرة بكلية الآداب معيدين، ويختار الفتى معيدًا بقسم اللغة العربية خلال العام الدراسى ١٩٣٧/٣٦، ويبدأ رحلته مع الدراسات العليا، فيختار موضوع «حركة النقد فى كتاب الأغانى»، ومن هنا سيطر مبكرًا على مادة الشعر وتاريخه، لأن كتاب الأغانى موسوعة كبرى فى تاريخ الشعر العربى، وتناقش رسالة الماجستير فى يناير ١٩٣٩، ويبدأ على الفور مع أستاذه طه حسين فى اختيار موضوع للدكتوراه، وهو (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى)، وكأنما حياته كانت بحثًا متصلًا فى هذه الفترة التى تنتهى بالجزء الأول من سيرته.

ويبدأ الجزء الثانى من السيرة بحصول الفتى على درجة الدكتوراه، وتعيينه مدرسًا بالقسم الذى تخرج فيه، منذ سنوات وعمل فيه منذ تخرج، فها هو ذا بعد ست سنوات يصبح زميلًا لأساتذته، وأستاذًا لتلاميذه، وهو ما يزال يرى الصداقة أكثر دوامًا، وأرحب صدرًا من الحب، لأن الصداقة مشتقة من الصدق فى المودة، والحب أنانى بين فردين كل منهما يريد الآخر لنفسه وحسب، وشوقى ضيف نادر الحديث عن هذه الأمور التى نسميها إنسانية، فمشاغله لها خط واحد يدور من بعيد أو قريب حوله هو البحث العلمى، كأنما محور حياته قد تحدد، وهدفه قد تحدد، وهو يسير إلى هدفه الذى يعرفه فلا يحيد عنه، ويجد العون من الأصدقاء أساتذة وزملاء وطلابًا، ولذلك يتوقف عندهم لأنه يكبر الصداقة ومن ثم يكبر الوفاء ويجلّه.

والنماذج التى ضربها أصبحت نادرة فى أيامنا هذه التى تتسم بالمادية المفرطة، فقد مرض عبد العزيز فهمى - عضو المجمع عامًا كاملًا، فلما شفى من مرضه، وهب مكافأته المجمعية طوال العام لطبع كتاب جيد لأحد الشبان، ووقع اختياره على رسالة شوقى ضيف بناء على

(١) معى ص ١٠٠.

تزكية طه حسين، ويقابل شوقى ضيف عبد العزيز فهمى لإهدائه نسخة من الكتاب بعد طبعه وشكره على ما قام به، ولا يجد فرصة ينفذ منها إلى موقف تربوى إلا استغلها، فهو أستاذ يعلم ويوجه، ومن هنا وقف أمام عبد العزيز فهمى وهو يقرأ رسالته، فيستوعب الصفحة فى ثوان كأنما قد طبعت فى ذاكرته، ثم أخذ يناقشه مناقشة القارىء الواعى، ومن هنا يتجه إلى معلمى الناشئة ليدربوهم على سرعة القراءة. والحقيقة أن معلمى الناشئة لا يستطيعون ذلك، لأن سرعة القراءة أصبحت علمًا قائمًا بذاته فى كثير من الدول المتقدمة، فهم يبدءون مع الطلاب ببضعة أسطر وبأجهزة وتقنيات معدة لهذا الغرض، ويتركون للطلاب فرصة، ثم يمحون الأسطر، ويزيدون عدد الأسطر فى كل مرة حتى يمكن للطلاب فى النهاية أن يقرءوا الصفحة فى ثوان وينتقلون من السهل إلى الصعب، ومن التخصص إلى الكتب الثقافية العامة، وهكذا وفق نظام لا يستطيعه المدرسون المجهدون فى مدارسهم، لأنهم لا يعرفون هذا النظام أولاً، ولأنه لا يدرك بالدربة وحدها.

ويؤلف (الفن ومذاهبه فى النثر العربى) ويطبعه عام ١٩٤٦، ويهدى نسخة لعبد العزيز فهمى، فيجد الشيخ الذى بلغ الثمانين من عمره، يبذل جهدًا عنيفًا فى ترجمة (مدونة جوستينيان) فى الفقه الرومانى. لم يكتف بالنسخة الفرنسية، بل رأى أن يتزود باللاتينية حتى يرجع إليها إذا توقف فى عبارة، وكان الربو يصيبه بنوبات متتالية فيكاد جسده الضاوى يتهاوى، ولكنه يعود بعد كل نوبة صلبًا وقّاد الذهن منكبًا على العمل الشاق، وهكذا يقدم لنا النموذج الحى والمثل الأعلى للإخلاص فى العمل العلمى، الذى لا يرجو صاحبه من ورائه كسبًا ماديًا، فهو قد وهب نفسه للحياة العلمية كما وهب أكثر جيله من المثقفين أنفسهم أمثال طه حسين، والعقاد، وأحمد أمين، وغيرهم، وهؤلاء كانوا القدوة التى اقتدى بها شوقى ضيف، فإذا كنا اليوم نعجب له ونعجب به، ونعتبره نموذجًا فريدًا فى حياتنا المعاصرة، فقد كانت القدوة أمامه فى هؤلاء الأعلام، الذين يحاول البعض اليوم الانتقاص من شأنهم لا لشىء ولكن لأننا نتلذذ بمحاولة تحطيم شوامخنا، كأن ذلك سوف يمكننا من احتلال مواقعهم، وكل ما صنعناه، أننا أفقدنا الشباب المثل الأعلى وتركناه حائرًا.

ويمنحنا عدة صور للوفاء وفاء الصديق لصديقه، ممثلاً فى الدكتور سامى الدهان محقق ديوان أبى فراس، ووفاء التلميذ لأساتذته، وهو يشيد فى كل حين بطه حسين، وعبد العزيز فهمى، وغيرهما، ثم وفاء الأساتذة لتلاميذهم، وهنا يذكر أن ثورة يوليو عندما قامت أعلنت وجوب تطهير الإدارة الحكومية، وتألفت لجنة للتحقيق فيما تلقته من شكاوى «وفوجىء صاحبى بخطاب من أستاذه الدكتور عبد الوهاب عزام عميد الكلية الأسبق، وكان قد أصبح سفيرًا لمصر فى باكستان، وإذا هو يقول فى خطابه: إن كنت قد ضقت بشىء فى كليتك – وكان اللغط

قد تكاثر عنها فى الصحف - فإن لك عندى عملاً فى السفارة على الرحب والسعة، وأنا فى انتظار ردك، فرد عليه شاكرًا وذكر له أن لا علاقة له بكل ما حاق بالكلية، وأنه يؤثر البقاء فى كليته مع طلبته، ولا يبغى بذلك بديلًا. وهى صورة رائعة من صور وفاء الأساتذة لتلاميذهم»[1].

ولعل الدافع الذى دفعه فى كثير من الأحيان إلى الكتابة هو كراهيته للظلم، فتلك الحملات الظالمة التى نالت شوقى بعد وفاته، هى التى دفعته إلى الكتابة عن شوقى محللاً شعره الغنائى والتمثيلى، موضحًا مكانته الرفيعة فى الشعر العربى الحديث ونشره عام ١٩٥٣، وعلى الرغم من اختلافه مع كل من طه حسين والعقاد فى آرائهما حول شوقى، فإن طه حسين والعقاد بالذات هما اللذان رشحا كتابه لجائزة الدولة، ولم تأخذهما العزة بالإثم، فحمد لهما هذا الموقف، وهكذا الشأن عندما توفى العقاد، وكثر الجدل حول قيمته الأدبية والفكرية وأى شىء يبقى منه للتاريخ، أحس أن الرجل لم ينصف ومن هنا كان كتابه عنه وما فيه من رد على النقد الظالم، ومحاولة لإنصاف الرجل، وإذا كان هذا كله رد فعل لمواقف معينة، فالحقيقة أن شوقى ضيف حين يذكر لا يذكر بكتابه عن العقاد أو غيره، بقدر ما يذكر بهذه الخريطة التى وضعها للتطور الأدبى منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث، وكأنما عاد ما أفاده من كتاب الأغانى فى بداية حياته، يصبه بعد أن نضج، ويوجهه لوضع معالم هذا التاريخ الأدبى.

لم يقم أحد من قبل بهذا العمل العلمى الضخم، الذى صدر فى ثمانية مجلدات (العصر الجاهلى - العصر الإسلامى - التطور والتجديد فى الشعر الأموى - العصر العباسى الأول - العصر العباسى الثانى - عصر الدول والإمارات فى الجزيرة والعراق - عصر الدول والإمارات فى مصر والشام - الأدب العربى المعاصر فى مصر)، وهو جهد لجان علمية تستغرق أجيالاً، وليس جهد فرد، وتوقف عند الأدب العربى المعاصر فى مصر، وإن كان قد أصدر كتابه (دراسات فى الشعر العربى المعاصر)، ولكنه رأى أن الشعر العربى الحديث فى بيئاته المختلفة، يحتاج إلى زمن وجهد لا يقوى عليه إلا الشباب الذين يمكنهم أن يسيروا على الدرب الذى عبده لهم، ومن هنا بدأت اهتماماته أخيرًا تتجه إلى أمر يشغل بالنا جميعًا، وهو مشكلة الضعف البين فى اللغة العربية، وعلى الأخص فيما يتصل بالنحو العربى ومشكلات تعلمه، فاتجه إلى دراسة المدارس النحوية أولاً، ثم ألف كتابه (تجديد النحو)، وأخيرًا أصدر (تيسير النحو قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده) وألغى فيه كثيرًا من أبواب النحو التى اختلف فيها القدماء، وذكر مصادره فى الحواشى ليكون كتابه حجة على من يدعى أن المشكلة معاصرة، ترجع إلى أننا لا نأخذ طلابنا بالشدة فى لغتهم، ولا ترجع فى بعض أسبابها إلى المادة العلمية نفسها

---

(١) جـ٢ ص١٠.

بدأت مرحلة ثالثة فى حياة شوقى ضيف، فقد بدأ ينفتح على العالم ويرحل فى كل اتجاه، وهو الذى عكف على مكتبته وكليته وطلبته طول هذا الزمن، كان ذلك عام ١٩٥٦ حين وجه اتحاد الكتاب فى رومانيا، وروسيا دعوة إلى اتحاد كتاب مصر كى يرسل وفدًا لزيارة البلدين، ووقع الاختيار على خمسة كان هو واحدًا منهم، ولعل هذه كانت البداية، لأنه سوف يمكث بعدها خمس سنوات فى مصر، قبل أن يبدأ السفر بطريقة شبه دورية على مدى عشرين عامًا.

أما الرحلة الأولى إلى رومانيا وروسيا، فقد استغرق وصفها صفحات وصفحات، فهو يتحدث عن الفاتيكان وقصره، ويصفه وصف أديب تلتقط عينه كل جزئية، ويزور روما فيصف مبانيها، وشوارعها، ونافوراتها المشهورة، ويرتد به الزمان إلى أيام مجدها وعزها، ويعود به الحاضر إلى واقعها، ثم يسافر إلى رومانيا فيتوقف عند بوخارست، ويلفت نظره ما أعده المسئولون هناك للأدباء والمفكرين من أسباب الراحة ممثلة فى بيوت خاصة بهم، تستقبلهم أثناء تأليفهم لأعمالهم وتهيئ لهم الجو المريح والهدوء المطلوب والتفرغ المرغوب، ثم هى تكافئهم بعد ذلك مكافآت سخية على ما ينجزون من أعمال، وكأنه يوازن فى الواقع بين الأديب هناك والأديب هٰهنا فى الوطن العربى الذى تسحقه الوظيفة ومطالب الحياة ويلهث وراء مشكلاته اليومية، ثم يعود آخر النهار كى يكتب، فهو فعلاً شمعة تحترق واحتراقها يكون سريعًا، لأننا لم نعرف كيف نحافظ عليها فنوقدها وقت الحاجة، ويعجبه اتجاههم العملى فهم قد قضوا على الأمية هناك بعد أن أسهم جميع أفراد الشعب، فقد فرضوا على كل قارئ أن يعلم واحدًا، وعلى كل مؤسسة أن تكافح الأمية بين العاملين فيها، ولو صنعنا هذا فى وطننا العربى لقضينا على الأمية نحن أيضًا، ولكننا لا نريد أو لا نود أن نتعب أنفسنا فى التنفيذ، ولتبق الأمية تشكل ستين فى المائة حتى تتولاها الأجيال الآتية.

ثم سافروا بعد ذلك إلى موسكو، ويتحدث عن كل شىء هناك، الحياة العلمية، حيث يتعلم التلميذ فى المرحلة الثانوية كيف يسوق السيارة، ويتعرف على أجزائها حتى يصلح أعطالها، ويدرس أجزاء الراديو والتليفزيون، حتى إذا إنتهى من هذه المرحلة كانت دراسته عملية مبنية على أساس نظرى، ويتحدث عن مزارع الاتحاد السوفيتى وأنواعها الحكومية منها والتعاونية، وكأنه يريد أن ينقل إلى القارئ صورة عما رآه تغنيه عن المشاهدة، وتسعفه فى ذلك عينه اللاقطة التى عرفناها فى وصفه للطبيعة أيام طفولته.

«وزار صاحبى ورفاقه الكرملين، وأمامه ساحة واسعة كبيرة وحوله سور به أضرحة لزعماء روسيا، وعلى ظاهره من الخارج شواهد بأسماء بعض الشخصيات المدفونة بجواره، وبناء الكرملين مقسم ثلاثة أقسام: قسم لمتحف وقسم لمجلس السوفييت الأعلى واللجنة المركزية، وقسم لدوائر الحكومة، وقد بدءوا بناءه فى القرن الحادى عشر، وظلوا يضيفون إليه ملاحق

جديدة حتى القرن الخامس عشر الميلادى، وعلى السور أبراج ذات رءوس تشبه المسلات بنيت قديمًا للحراسة، وللكرملين مدخلان كبيران أحدهما للمارة والثانى للسيارات، وقد دخل صاحبى مع رفاقه المتحف، وهو مكون من دورين: أعلى وأسفل، وصعد إلى الدور الأعلى على سلم عريض من الرخام، ورأى فى أعلاه مرآتين كبيرتين مزينتين بالتماثيل، كما رأى ساعة كبيرة على مقعد مزخرف، وأخذ يشاهد المعروضات فى الدور، وكان أول ما شاهده دروع الفرسان النحاسية وغير النحاسية، ورأى خوذة - خالها تركية - كتب فى أعلاها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وكتبت وسطها آية الكرسى فى شكل دائرى، وشاهد كثيرًا من أسلحة القرون الماضية سيوفًا، وغير سيوف محلاة مقابضها بالجواهر، كما شاهد قسمًا خاصًا بالساعات، وقسمًا خاصًا بثياب رجال الكنائس المزركشة، والكتب المقدسة مرصعة بالجواهر واللآلئ، ومعها صور للعذراء ولبعض القديسين، ويزخر هذا الدور العلوى بأوانٍ لا حصر لها ذهبية وفضية، وبعضها مهدى من الدول إلى القياصرة، حمله إليهم سفراؤها، وتمتد التواريخ على التحف منذ القرن الخامس عشر، وكأنه لم يضع شيء مما كان فى قصور القياصرة أثناء الثورة الروسية الدامية. وتجسم فى الأوانى صور وتماثيل كثيرة، والزجاجى منها، والخزفى محلى بالذهب والفضة، والأطباق الصينية محلاة بزركشة بديعة، وكذلك الصينيات، والكئوس الكبيرة والصغيرة، وتكثر الشمعدانات والتماثيل المتخذة من سن الفيل للأسد والصر، وفى جانب من هذا الدور أوانى بطرس الأكبر الذهبية»[1].

أردت بهذا النص المطول الذى يصور الدور العلوى من قصر الكرملين، أن أعرض للقارئ كيف يصف شوقى ضيف وكيف يعرض مشاهده، كأنه أمين المتحف يراجع سجلاته، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة، وينتقل بعد ذلك إلى بقية أجزاء القصر، ثم إلى بقية الأماكن التى زارها هنا وهناك، ومن هنا يتضح مدى أهمية الوصف عند شوقى ضيف، ليس فقط وصف المتاحف العديدة التى كان يهتم بها فى كل مكان زاره، ولكن أيضًا وصف المدن، لا من حيث هى أبنية وشوارع ومعالم ومتاحف ومكتبات وجامعات وحسب، ولكن أيضًا من حيث هى مجتمعات لها عادات وتقاليد، وبشر لهم طموحاتهم، وعواطفهم، وآمالهم، وآلامهم، ومثلهم العليا فى الحياة، وينقل صورًا من هوهم وجدهم، حتى لا نعود محتاجين إلى لوحات توضيحية.

وفى طريق عودته إلى مصر تقوم حرب ١٩٥٦ فيتوقف فى بيروت مدة حتى ينجلى الموقف وتفتح المطارات، ولكنه لا يضيع هذه الفترة سدى، ثم هو منفعل بهذه الحرب القذرة، التى تآمرت فيها ثلاث دول على مصر كأنما هو تحالف دولى من أجل كسر شوكة مصر، يذكرنا بالتحالف الدولى الأول والثانى والثالث، أمام نابليون فى القرن الماضى، إنها الدول الكبرى التى

---

(١) ج ٢ ص ٢٠.

لا تريد لغيرها أن يكبر، ولكن الدول لها أعمار كما يقول ابن خلدون فى مقدمته، وهكذا تتحول دول عظمى بعد هذه الحرب إلى دول من الدرجة الثانية، لا تستطيع الحفاظ على مستعمراتها فتفقدها واحدة إثر أخرى، وهنا يكتب شوقى ضيف مقاله (استالينجراد الثانية) يوازن فيها بين بور سعيد فى صمودها، أمام العدوان واستالينجراد فى صمودها أمام هتلر، كلتا المدينتين قاومت وتحملت كثيرًا من الدمار، ولكنها افتدت أمتها فى النهاية.

وهنا نحس كأن شوقى ضيف قد قال أهم ما يود أن يقول، ولذلك يجرى مسرعًا عجلاً فى مذكراته، ويمر على أحداث يعبرها، كأنه لا يريد أن يتذكرها أو يذكرها، فقد قال أهم ما عنده من وجهة نظره، ولم يبق لديه إلا بعض معالم على الطريق، ولذلك يذكر اختيار المجمع العلمى العراقى له عضواً مراسلاً عام تسعة وخمسين وتسعمائة وألف، واختياره ليشترك فى امتحان ليسانس الآداب بفرع الخرطوم، وزيارته لدمشق فى مهرجان الشعر الثانى الذى أقامه المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون، ودعوته عام واحد وستين وتسعمائة وألف لإلقاء محاضرة بالمركز الثقافى بحلب، ثم دعوته أستاذًا زائرًا مدة أسبوعين بجامعة بيروت العربية، وكأنه يقفز قفزًا وإن كان قد توقف بطبيعة الحال أمام قلعة حلب وتذكر سيف الدولة وشاعره المتنبى، كما توقف أمام الطبيعة الخلابة بلبنان.

وتوقف وقفة قصيرة أمام سنوات قضاها فى عمان بالأردن معارًا من جامعة القاهرة، وإن كانت هذه الوقفات الصغيرة أمام الأمور الحياتية قد حل محلها وقفات طويلة أمام الحياة الفكرية، فدروسه هناك أتاحت له فرصة إعادة دراسة الحياة الثقافية أيام الحروب الصليبية، وتبين له خطأ المستشرقين ومن تابعهم من الباحثين العرب، حين عدوا هذه الفترة (القرنين السابع والثامن الهجريين على وجه الخصوص) فترة ركود وضعف، فقد رأى أن الأمة وهى تشحذ قواها جميعها، وتستطيع أن تقضى على التتار الذين اندفعوا كالسيل لم يقف فى طريقهم شىء سوى (عين جالوت) التى عبرت عن وحدة الجبهة فى مصر والشام، والتى استطاعت استعادة القدس من أيدى الصليبيين، ثم القضاء عليهم نهائيًا وإلقاءهم فى البحر ليعودوا من حيث أتوا، لا يمكن أن تكون أمة لاهية واهنة لا حربيًا ولا فكريًا، فحاول أن يرد إلى العصر اعتباره، ومازالت زياراته تترى فهو فى بغداد مدة أسبوعين بدعوة من جامعة بغداد، ثم هو فى استانبول بعد ذلك مع أسرته سائحين، وإذا كانت بغداد سوف تأخذ منه الكثير بعد ذلك وهو يدرسها، فقد توقف عند إنطاكية فى سياحة، وتذكر مدائح أبى تمام لمحمد بن يوسف الطائى وجنوده البواسل، وهم ينازلون جند بيزنطة فى الأناضول شتاء، والثلوج المتراكمة على الجبال وطرقاتها الضيقة، وارتفاعها الشاهق، وكان يتصور وهو يقوم بتدريس تلك المدائح لطلابه أن أبا تمام إنما يبالغ، حتى إذا رآها رأى العين، يتيقن أن أبا تمام كان يصف بطولة حقيقية.

obeikandl.com

وما يزال شوقى ضيف يمزج بين الأحداث السياسية وسيرة حياته بأحداثها الخاصة، فيتوقف وقفة قصيرة عند حرب ١٩٦٧ كأنما يريد أن يقول أمرين: الأول أننا نعيش فى عصر أثرت فيه السياسة فى كل جوانب الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، فلا يكاد الإنسان يخلو إلى نفسه ليفكر حتى يروعه حدث سياسى، وكأننا نتنفس السياسة مع الهواء كل حين، والأمر الثانى أننا اعتدنا هذه الحياة حتى أصبحت وهى تشغلنا لا تشغل إلا مساحة محدودة من فكرنا سواء أكانت أخبارًا سارة أو أخبارًا مؤلمة، فقد «تكسرت النصال على النصال» من طول ما تجرعنا وعانينا، ولكن النكسة لم تمر دون أن يستغلها كما عودنا أن يختزن كل موقف، وأن يحوله إلى دراسة جادة، فقد أصدر كتابه «البطولة فى الشعر العربى» محاولاً قدر طاقته وجهده أن يمسح أثر الانهزام، وأن يقول لنا: إن حياة الأمم مليئة بالانتصارات، وحياة الأمة العربية على وجه الخصوص حياة يحتل فيها النصر صفحات مشرقة، أما الهزائم فهى نقاط لا تلوث الصفحات، وإن الانسان يسقط ويقوم ولا ينهزم إلا إذا هزمت إرادته.

وأحيل إلى التقاعد فى صيف عام ١٩٧٠، ولكنه لم يتقاعد، فالتقاعد من القعود، وهو لم يتعود القعود أبدًا، لقد بدأ أخطر مشروع له منذ عشر سنوات وسيبقى مشغولاً به عشر سنوات أخرى، إنه تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى، فى العصر الإسلامى التطور والتجديد فى الشعر الأموى، فى العصر العباسى الأول، فى العصر العباسى الثانى، عصر الدول والإمارات جـ ١، عصر الدول والإمارات جـ ٢ الأدب العربى المعاصر فى مصر، دراسات فى الشعر العربى المعاصر، إنها موسوعة لا ينهض بها فرد عادة، وإنما تنهض بها مؤسسة تبقى أجيالاً تصدرها جزءًا بعد جزء، ولكنه نهض بهذا العمل الكبير وحده، منذ فتوته إلى شيخوخته، وكأنه أحد عمالقة تراثنا الذين وهبوا حياتهم لعمل علمى كبير كأنه الطبرى يكتب «التاريخ» أو «التفسير» كأنه الجاحظ يكتب موسوعته «الحيوان» كأنه البخارى أو مسلم يكتب «صحيحه» كأنه الأصبهانى يكتب «الأغانى» كأنه الخطيب البغدادى يكتب «تاريخ بغداد»، كأنه ابن منظور يكتب «لسان العرب»، كأنه القلقشندى «يكتب» صبح الأعشى «كأنه ابن حزم يكتب» المحلى».

ويذهب إلى جامعة الكويت متعاقدًا فتتسع دائرة تأثيره، ويقوم بالتدريس، ويشرف على طلاب الدراسات العليا، كما أشرف من قبل ومن بعد على طلاب جامعة القاهرة والجامعة الأردنية، ويكوّن مدرسة علمية تمتد من المشرق إلى المغرب ومن الشمال إلى الجنوب، ولا أبالغ إذا قلت إن جيل الأساتذة الآن بالجامعات العربية، تتلمذ على يديه بطريقة مباشرة، أو على كتبه أى بطريقة غير مباشرة، فكل أقسام اللغة العربية مدينة له ولعلمه.

ولقد بدأ يحصد ما زرع، وكان أول الغيث اختياره عضوًا بمجمع اللغة العربية عام ستة

openkanz.com

وسبعين وتسعمائة وألف، وهو فى المجمع يحاول منذ اختياره أن يقوم بما سوف تذكره له الأجيال القادمة من محاولات مستمرة، لتيسير النحو العربى، وهو شغله الشاغل الآن بعد أن فرغ من تاريخ الأدب، ورأى تعلم الشباب للعربية، فرأى أن تيسير النحو وسيلة إلى رأب الصدع ومازال يحاول مرة ومرة ومرات.

وفى سبتمبر عام تسعة وسبعين قرر المجلس الأعلى للفنون والآداب منحة جائزة الدولة التقديرية للآداب، وجاء فى حيثيات القرار (إنه يعد نمطًا فريدًا فى جيله، وإمامًا فى تخصصه، وهو بحق ظاهرة ثقافية، ودلالة أصيلة على قدرة مصر الفكرية، وقد أصبح بحق مفخرة كبيرة لمصر فى شتى الأروقة العلمية، والجامعات العربية وغير العربية).

وفى يناير عام ثلاثة وثمانين، نشرت الصحف نبأ حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى، «تقديرًا لأعماله فى أدب القرنين الثانى والثالث الهجريين، بالإضاف إلى دراساته فى تاريخ الأدب العربى قديمه فى مشرقه ومغربه، وما كان منها فى الدراسات القرآنية والنحوية والبلاغية، التى تعمق الدراسات الأدبية، مع تميز أعماله بالنظرة الشاملة للأدب العربى نثره وشعره، على طول عصوره، وتعدد فنونه واختلاف بقاعه».

ويرد هو على هذا التقدير قائلًا: إن هذه الجائزة العالمية العظيمة ستدفع دفعًا إلى منافسة حميدة فى الأقطار العربية بين المتعمقين فى الدراسات الإسلامية، ودراسات الأدب العربى، والدراسات العلمية، للفوز بقصب السبق، مما يعود بأكبر النفع على نهضتنا العربية المعاصرة.

وها نحن نقترب من النهاية، والنهاية تتمة لمشهد البداية، كانت البداية بنفحات الدين الحنيف، والقرآن الكريم والكتّاب والمعهد الدينى، وها نحن اليوم مع شوقى ضيف فى رحلة الحج، يخلص من ضوضاء الحياة ومشاغلها المادية، لينعم فترة بالحياة الروحية ومتاعها الهنىء الذى لا يدانيه متاع.. واكتحلت عيناه بقبر الرسول وسار فى طرقات عبرها الرسول من قبل، وصور التاريخ لا تبرح خياله، كأنما ارتد إليه الماضى بعبقه يحيا فى الواقع مرة أخرى.. ثم سار إلى مكة المكرمة، وطاف حول الكعبة، وأتم شعائر الحج، فغسل قلبه وملأ روحه بقوة ربانية، وأحس كأنما خُلق من جديد خلقًا آخر.

هكذا توقف القلم بعد مسيرة طويلة طولها خمسة وسبعون عامًا، تمثل القرن العشرين فكرًا وثقافة، وسياسة، وتربية، وتجارب من خلال رحلة فرد متميز، يعرضها عرضًا أدبيًا، يتوقف ويتأمل حينًا، ويسرع الخطى حينًا آخر، ويستخلص العبرة فى كل الأحيان، يمزج بين التركيب والتحليل فى البناء، ولكنه لا يعرض الصورة بكل جوانبها، فقد ترك فراغًا لا ندرى له سببًا، لمسه حينًا لمسًا خفيفًا، حين تحدث عن الوفاء، ولكن هذا لم يشبع نهمنا، فشوقى ضيف المفكر واضح تمام الوضوح، ولكن شوقى ضيف الإنسان فى بيته، مع أولاده، فى عاداته وتقاليده، فى

عواطفه بكل مدلول الكلمة، كل هذا أسدل عليه ستورًا كثيفة، وحجبه عنا، كأنه يراه نوعًا من الخصوصية، قد لا تفيد الناس، أو نوعًا من الضعف البشرى لا يليق بالكبار، أو هو نتيجة النشأة الريفية التى تعتبر الحديث عن الأسرة لا يليق، ولكن كل هذا لا يقنع القارئ، فلمسة حنان هنا، ولمسة أبوة هناك، وأسلوب حياة فى طرق التهيّؤ للكتابة، أو فى الترويح عن النفس من خلال الحياة اليومية، كانت كفيلة بأن تزيد السيرة إمتاعا وخصوبة وتشويقًا.

أ. د. ماهر حسن فهمى
عميد كلية الإنسانيات
وأستاذ الأدب الحديث
جامعة قطر

obeikandl.com